الجزء الثالث

فحبهم ولايـة

واحذر من مكر الله: ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا قوم الخاسرون**﴾(سورة الأعراف/98)، وانظر فضل الله عليك في نعمه وعدله في ابتلاءه، فلا تقنطنّ في شدة، ولا تفرحنّ في نعمة. قال تعالى: ﴿ **لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾(سورة الحديد /23). ولا تظن انه يحبك إذا أعطاك الحطام الفانية، فكل نعمة ما سوى محبة الله ورسوله فتنة. قال تعالى: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾(سورة التغابن/15). وكل نعمة زائلة تشهد لصاحبها أو عليه يوم القيامة إلا ما عند الله، أعني محبته ومحبة رسوله الكريم وأصفيائه من خلقه وأهل الإيمان أجمعين ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (سورة النمل /96) .

فمحبة أهل الفضل باب محبة الله، ودواء لكل داء، وبغضهم أصل الشقاوة والجامع لكل داء. وتشبه بهم كي يحشرك الله معهم: "فالمرء مع من أحب" – كما قال عليه الصلاة والسلام – وتوسل بهم عند كل مُلمّة، وبسيد الخلق أجمعين وأهل بيته وأصحابه عند كل هول.

فحبهم ولاية، وزينة الولاية الكرامة: ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾(سورة يونس/64). وانبذ كلام المبتدعين المعارضين للوسيلة وأهلها وحاربهم بما تستطيع. فالدفاع على أهل الحق دفاع على الحق، وذلك من محض الإيمان الخالص: ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور**﴾(سورة الحج /36).

فالخوان الذي لا يدافع جبنا أو عجزا أو مكرا. فهذا منكر، والمطلوب تغييره باليد واللسان والقلب حسب الاستطاعة كما ورد في حديث المعصوم صلى الله عليه وسلم. فالخوان الكفور يذله الله على رؤوس الأشهاد بإهمال أخيه وتسليمه لهواه ولعدوه وهو قادر على نصرته غير سقيم.

إنما ترث الأرض أمة الشورى

والإمامة في الأرض تمكن وعز بعد صبر – ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾(سورة السجدة/24). لأمة يتميز أفرادها بالقدرة على فرض النفس، لا لكسولة تُؤثر الدنيا على الآخرة: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾(سورة البقرة/129). فهذا تمكن رباني في الأرض وبشرى لخليل الله في الآخرة لأنه كان يتحرك بعقيدته، وفني في مشاهدة مولاه كتحرك أمة بكاملها. ومكن الله بني إسرائيل على الفراعنة تمكن الإيمان على الوثنية. والحق لا ينتصر بأي صورة، والباطل لا ينهزم بأي صورة. والأجدر بالبقاء الذي يقرر الحقيقة.

والحق نفّاع : ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ (سورة الرعد/17). . . ويثقل في الميزان و يعطي الناس فضائل وعزائم. وما قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه زمام قيادة العالم وأهله من بعدهم إلا أنهم كانوا أمة شورى وحقوق وحرية، فلا ينحني صلب إلا للحق جل علاه، وكل الناس سيد في نفسه. والجديرة بالوراثة الأمة التي تغالي في عقيدتها ورهبتها من الله وتوكلها على الله، والحب لله. والتي تقدم للإنسانية حرية بعد عبودية ونورا بعد ظلام وهداية بعد ضلال، وإنما ترث الأرض الأمة المثقفة المعززة بالقرآن والتي تحول أسرار القرآن إلى نظريات تطبقها في جميع مجالات الحياة. قال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ (سورة النور/53).

والإمام تبايعه الرعية وتطيعه إلا في معصية ويستشيرها كلها بانتخاب أو يستنصح الصفوة منها: أهل العلم والفكر، فهي المسؤولة عن الرعية، والقدوة الحية للأمة بحكم علمها وفكرها، وله إرغامها في المصلحة العامة وإن بنفي أو سجن أو ترهيب في حدود القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾(سورة الزمر/10). وقال أيضا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويل**﴾(سورة النساء/59).

فها هو الرسول الكريم يدعو أصحابه يوم بدر للشورى، فيقول: " أشيروا علي أيها الناس"، وأبو بكر من بعده يصرح: "إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني فيما أطعت الله ورسوله وإن عصيتهما فلا طاعة لي عليكم". وعمر الفاروق يقول: " إن رأيتموني عن صواب فأعينوني وإن رأيتموني عن اعوجاج فقوّموني" وسُرّ كثيرا بجواب أحد الرعية: "لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا".

وأُعجب بقولة "خولة" المشهورة حينما أراد تحديد المهور، فقالت له: أنسيت يا عمر قول الله تعالى: ﴿**وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا** ﴾(سورة النساء/20)، فقال: " أخطأ عمر وأصابت المرأة ". وعلي بن أبي طالب كان يستشير كل الرعية إلى أن لقي حتفه شهيدا، وكذلك الحال في عثمان بن عفان ذي النورين، وعمر بن عبد العزيز في الأموية الذي قضى بالعدل بين الرعية وأزال عنها الفقر والجهل بالكلية، رضي الله عنهم أجمعين. وقد استشارت (بلقيس) قومها عند نبإ الهدهد قائلة: ﴿**يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**﴾(سورة النمل/32-33).

فهذا انسجام رائع بين رعية طائعة وملكة حكيمة ذلك الذي أدى بهذا العرش إلى أن يلبي نداء نبي الله سليمان عليه السلام ويذوق من رحيق الإسلام. فلا خاب من استخار ولا ندم من استشار، فالاستخارة تهدم كل شعوذة من أزلام وقرابين للأصنام، والمشورة تقيم الدولة الإسلامية على أس العدل والمساواة والحرية. والطائفة المنصورة في كل عصر تؤسس بنيانها على التوحيد، وتجدد الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

كيف تتحرر الشعوب

والانتصار الخلقي مقدم على من سواه، والمفكر مهندس بناء وأداة عمل تؤيده السلطة التي تكونه في حقول العمل ومؤسسات العلم والتربية، غير مغلق على نفسه كراهب في صومعته. فيعرف ثمة حاجيات البلاد ومؤهلات العباد، ويلقنه العامل والفلاح دروس الأمانة ومخاطر المسؤولية ويعالجانه من أمراض الجمود والأنانية وداء المكاتب فيتقي الظلم بمعرفة، وينصر الحق بمحبة ويدخل حضرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: " نظّر الله امرئ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها".

وإيصال النفع إلى الخلق موجب لرحمة الله وسبب في الوصول إلى حضرته: " الخلق عيال الله – كما قال عليه الصلاة والسلام – أحبكم إلى الله أنفعكم لعياله" وإذا أردت أن تنهض بشعبك إلى الرقي فتعلم منه : ﴿**وما أنت عليهم بجبار** ﴾(سورة ق/45)، وعالجه بحب وخاطبه بلغ وعلى ثقة

به. فلغة الشعب أن يراك إمامةٌ في التضحية والخلق النبيل، وإلا رفضك كما تلفظ الأموات من البحار، واجعله حرا يتكلم كما يفكر، ويفكر فيما يؤمن، ولا يؤمن إلا بشريعة الله ورسوله، وإلا صعب عليه التحرر ودام عليه نكال عدوه، إذ كل ما حارب جانبا تولدت منه جوانب أخرى لم تكن في حسبانه، فيحارب بلا جدوى لأنه في شك من سلاحه وريب من عقيدته واضطراب من هدفه، أيقتل من يحب أو يعشق من يقتل ؟؟ كلا، قال تعالى: ﴿**يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا**﴾(سورة الأحزاب/13). وفرارك من عدوك أن تشفق عليه وقد تغدى طويلا من لحمك وشرب كثيرا من دماء بنيك، فتشفق عليه لأنه خدر عقلك وأنساك مواقف سلفك الصالح وبطولات الأجداد، فأنت مثله إلا أن تخالف سلوكه ، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾(سورة المائدة/51-52)... فليس لهذا المرض علاج و لا لهذا المريض راحة ضمير. فمثله كمثل الكلب كما قال تعالى: ﴿**إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾(سورة الأعراف/176).

وأشد من ذلك أن يعتقد المصاب نفسه معافى وفي جسمه بذور السرطان تغدو خماصا وتأتيه بطانا فلا يتفطن للعلاج إلا إذا رأى الشلل في جل ذاته. وما علاجه أنذاك إلا الموت الذي يريحه ويحوّل جوهره من ذبابة إلى نحلة تشقى لسعادة الناس: ﴿**إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**﴾(سورة الرعد/11).

فمن أراد الهوان يستعبد ومن أراد الحرية فله ما أراد، وكل أمرئ يولد على الحرية – فطرة الله التي فطر الناس عليها – يجرى حبها فيه كما يجري في عروقه لبن أمه، وإن اختلفت الأجناس والألوان والبقاع والأزمان، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ".

واعلم أن كل حرية مقيدة، فتنتهي عندما تنقلب عدوانا على الغير، وحرية الرعية مقيدة بطاعة أهل الحل والعقد والإمام، وهؤلاء منقادون للأمة بسلاسل العدل والإحسان وإقام القسط بين الناس، والمسؤول مقيد بالواجب، فله حق الطاعة وعليه حماية شعبه، فلا تأخذه في الله لومة لائم ولا تيار

عاطفة ولا يغرنه سلطانه، ولا يأخذه قهرا إلا لضرورة: فويل لمن أم قوما وهم له كارهون، ولا خير في قوم تؤمهم امرأة لأنها قليلا ما تعدل، وإذا عدلت فقليلا ما تنصف بين ذويها والرعية، وإذا وجد فيها الإنصاف انعدم صبرها عند الأهوال وتلاشت شجاعتها عند النوازل.

وما القائد إلا الذي تتولد من إرادته الإرادات ومن عزيمته العزائم فيثير في نفوس أحبابه القلة غبطة، وأعدائه حسدا ونكبة، وهو الغالب بالله على كل حال، وعكسه الذي يدعو إلى العصبي ويقاوم للقومية وجزاءه العزل فورا لخروجه عن المنهاج القويم. ومن يجري في عروقه حب الحرية يجاهد فيها ولو قيدوه بالأغلال لا يرضى بالافتقار إلا لله، ولا يصبر على النضال ولو بحديث نفس، قال عليه الصلاة والسلام: " من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق".

فلا إيمان إلا بالجهاد ولا جهاد إلا بالإيمان، فتلك تجارة لن تبور لأصحاب الميمنة أولئك أهل التقوى وأهل المغفرة، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(سورة الصف/10-11). والقائد يتحلى بثوب الفضيلة ويتجمل بالشورى والنصيحة ويتخلى عن كل رذيلة واستبداد .....

الحق سرّ الجمال

وأعلم أن الله جميل يحب الجمال، وأن الجمال سر الحياة، والحب . . . سر الجمال، والتواضع سر الحب، فأهل الفن يرون جمال الحق في كل الألوان، ويذوقون قربه بشتى الأذواق، أولئك أهل سلم وطهارة يضحون بفنهم لإظهار الحق فيشتاق الفن النبيل إلى خدمتهم كما اشتاقت البقرة الصفراء الفاقع لونها إلى إظهار الحق على يد نبي الله موسى عليه السلام حينما أمر قومه أن يذبحوها ويضربوا القتيل ببعضها، فأحيا الله القتيل وأظهر الجاني وأقيم القصاص، فهذا هو الجمال الذي يحبه الجميل وما سواه فتنة وغرور.. ألم يقل ربنا تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ (سورة القيامة/22-23) بلى !! فالذين يتجملون في الدنيا بجمال الاتصال وحسن الفعال يدخلهم ربهم حضرة القبول ويجلسهم على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء ويكرمهم بالحسنى وزيادة.

فليس لهذا الجمال نهاية، ولا لأرضيته حدود، فهو للجميع، والجميع له بلا عصبية ولا حزبية، فلغته لغة القلوب المطمئنة للجميل، ونوره يوقد من شجرة العقيدة، لا شرقية ولا غربية، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، فهو ملك يتوارثه أهل العواطف الرقيقة، أهل السخاء واليقين. وما سواه حبل من حبائل الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فيخوف أولياء ويدعوهم إلى حرية الغاب، ويصدهم بمشاكل وهمية عن الحياة الباقية، تراهم مذبذبين بين ذلك لا إلى أمن مستقر ولا إلى حرية فكر وضمير. ومضت علينا أحقاب نعاني من هوانهم حتى أخرجتنا اليد الإلهية إلى الحرية، واستجاب الله دعاء المخلصين منا، قال تعالى: ﴿**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾(سورة يونس/14).

وقال أيضا: ﴿**وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾(سورة إبراهيم/45-46). فنسينا فضله تعالى، وقابلناه بالمخالفات والجحود فمسخت عقولنا وسلب النفع من جوارحنا: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ فلسنا بمسلوبي الاختيار بالكلية كما يزعم المجبرة ، إذ اخترنا لأنفسنا طريق الجحود، فهدانا الله إلى سبيل الفتنة والخوف فاضمحلت الأخوة بيننا، وحل مكانها النزاع، وصدق فينا قوله تعالى: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾(سورة الأنعام/65).

فالجوع والخوف آيتان يعذب بهما الله من يشاء من خلقه إذا ﴿**بدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار**﴾ (سورة إبراهيم/28). ألم يعذب بهما قريشا التي كانت مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، كما قال تعالى: ﴿**فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾(سورة النحل/112) كما عذّب من قبلها ومن بعدها الذين زيّن لهم الشيطان أعمالهم ﴿فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾(سورة النمل/24).

فهؤلاء أهل سبإ كانوا في بلدة طيبة ﴿**جنات عن يمين وشمال**﴾(سورة سبأ/15). كانوا يتمتعون بأرغد العيش وأهنأ الأيام، وحينما أعرضوا عن جمال العقيدة أبدل الله نعيمهم بـ ﴿ **جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور**﴾(سورة سبأ/16-17).

فهذه قاعدة حتمية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، القاعدة التي يقول عنها القرآن: ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرا** ﴾(سورة الإسراء/16) فشأن المترفين الفسادٌ في الأرض والتسلط على المساكين وشأن الحق أن يقف بالمرصاد ضد كل طاغية: ﴿**ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾(سورة الأنفال/8) فلن تجد في دنيا هؤلاء معينا للظمآن ولا غذاء للجائع إلا خمرا وعفيونا لأهل المشاكل، أو رقصا وغناء لأهل الأعصاب، أو ربا للتجار، أو رشوة لأهل القضاء، أو زنى للجواسيس وعشاق الجنس اللطيف والحرية العقيمة.

ألم تكن هذه حال المسلمين اليوم وقد كانوا من قبل سادة ودعاة حضارة ونور؟؟... ألم يعذبنا الحق تعالى بريح التفرقة والحروب تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحنا خشبا مسندة لا حياة فيها، غثاء كغثاء السيل؟؟ بلى!! ﴿**وما برك بظلام للعبيد**﴾ ألم نتفطن إلى ما قاله ربنا: ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾(سورة الأنعام/65) فهذا تحذير وكل من يعي هذه الدرر النفيسة في قوم لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة، في قوم عمهم الجهل وأعمى ابصارهم ﴿**صم بكم عمي فهم لا يرجعون**﴾(سورة البقرة/17).

فلنرجع إلى النصيحة والعلم النافع الذي يقود الشعوب إلى الرقي ويفتك بكل شعوذة وخرافة وجهل واستغلال.